الفرار نحو الضياع ...

بدير عباس النحال

لأنه كان على رأس عشرة من الأشقاء الذين تمكنت منهم التعاسة، فقد كان أجدرهم بالادعاء أنه عاش طفولة خلت من هذه التعاسة، فهو الذى لحق بالخير العميم قبل أن يتسرب ويتوزع ويختفى فى دروب الكثرة والشراهة.

وما زال بدير يذكر الأيام الثرية التى سبقت يومه الأول لدخوله المدرسة.. كانوا كلهم مشغولين بتجهيز ملابسه الجديدة.. بدلة من الصوف الإنجليزى من جاكت وبنطلون قصير وقميص حريرى أبيض وطربوش قصير أكمل فيه هيئة مذهلة جعلت أحد أصدقاء جده يهتف:

ـ «ما شاء الله.. كأنه الملك فاروق عندما كان أميرًا صغيرًا..»

وكان يافعًا حصيفًا مدركًا واعيًا لكل ما حوله عندما قامت الثورة التى ما إن جاءت حتى كانت القسمات النضرة فى وجوه إخوته قد تهدلت، فما بال الحال بوجه أمه وأبيه..

فكم كان قلبه مفطورًا وعزمه مكسورًا وهو يشهد مع أهل البلد موكب ضباط الثورة الذى فى طريقه إلى إقطاعية فؤاد باشا سراج الدين ليوزعوا أراضيها على الفلاحين المعدمين.. فكيف يشارك فى فرح ليس له نصيب فيه؟ فأبوه لن يحصل على أرض مثل باقى المعدمين. لماذا؟.. لأنه موظف ويتقاضى مرتبًا.. أجل.. أربعة جنيهات وقد تقل قليلًا.. وهم اثنا عشر فردًا، وقد يزيدون، فأمه ما زالت تنجب.. وأتت لهم «بفرحانة» هذا العام..

فى هذا اليوم الموعود خرج الأهالى واصطفوا على جانبى الطريق الزراعى.. الرجال

يتصايحون.. والنساء تطلق الزغاريد.. والأطفال يلهون ويمرحون ويقرءون اللافتات المعلقة على أقواس الزينة المنصوبة فى أول البلد وفى وسطها وفى آخرها:

«مرحبًا برجال الثورة الأحرار»

«عاش البطل محمد نجيب ابن مصر البار»

«عاش الأبطال الذين قهروا الظلم و الطغيان وحققوا العدالة»

وقف فى مكانه دون أن يشارك فى هذه اللوثة التى عصفت بالكبار قبل الصغار.. لوثة لم تستمر سوى دقائق قليلة كانت كافية لعبور الأبطال قلب قريتهم بكل هذه السرعة.. وعندما عاد الأولاد راحوا يحكون عن زميلهم فتيان الذى ظل ممسكًا بذيل سيارة الرئيس محمد نجيب من القوس الأول حتى القوس الثالث دون أن يتركها..

وقال أحد الشهود إن الرئيس التفت خلفه وشاهدهم وهم يصيحون على هذا الولد العفريت وهو منطلق مع السيارة المكشوفة بنفس سرعتها، فابتسم ابتسامة حنونة ثم عاد يلوح للناس.

وفى وقفته مع أخيه أمير وزملائه: طاهر وفريد وفتيان لمح بدير والده يتسلق القوس الخشبى العالى الحامل لليفطة المكتوبة وأخذ يزيل القماش ويجمعه بين يديه ويلفه حول جسده، ففهم أن العمدة قد كلفه بتجميع القماش من فوق الأخشاب قبل فكها.. واهتاجت نفسه عندما رأى أن «عباس النحال» هو الوحيد الذى لم يجدوا غيره ليقوم بهذه المهمة المجانية، وكانت هذه اللقطة قد دبرها له الحظ العنود لتؤكد له أنهم حتى فى الأفراح والمناسبات السارة لا توزع عليهم إلا أدوار الخدم.

وراح يبحث بإلحاح عبر نظراته الغائمة عن أخيه السيد، فقد يعثر معه على سيجارة يقتسمان تدخينها معًا..

* * *

وبعد شهور عديدة ـ أصبح بعدها موكب الضباط الأحرار مجرد ذكرى ـ نظم التلاميذ مباراة فى كرة القدم مع تلاميذ قرية مجاورة، ولم يشارك بدير أو أخوه السيد فى اللعب

واكتفيا بالجلوس على خط الجير يدخنان سيجارة واحدة؛ لأنهما لم يدفعا القرش المطلوب من كلّ مشارك.. قروشًا يجمعونها لشراء علبة الحلوى جائزة الفوز.

وفى لحظة مباغته لم يحسبا لها حسابًا نادى عليهما كبير فريقهم:

ـ «استعد يا بدير.. استعد يا سيد..»

لم يكن فى ظنهما أن فريق البلد الذى منى بعدة أهداف مبكرة لم يجد رئيسه حلًّا سوى إشراك ولدى النحال بديلين عن لاعبين آخرين، فقد يتمكنان من تعديل النتيجة. أسرعا، فخلع كلّ واحد منهما جلبابه، وكأنهما قد نسيا ما يرتديانه أسفل الجلباب. ثم ظنا أن التهليل العالى الصادر من المشجعين حول الملعب كان للترحيب بهما، ولكنهما أيقنا بعد قليل أن الصياح يدور حول سروال كلٍّ واحد منهما وقميصه.. فهما مصنوعان من قماش اليفط المسروق.. وصار أمر ملابسهما ذات الكتابة أكثر إثارة من المباراة نفسها؛ إذ ظهرت الآن الحقيقة التى واجهوا بها عباس النحال الذى سرق قماش اليفط.. وهو اتهام أنكره عباس بإصرار أمام عشرات الشهود الذين شاهدوه يزيل القماش، فعندما قال له شيخ الخفر:

ـ «يا راجل كلنا شاهدناك تزيل القماش بعيوننا هذه التى سيأكلها الدود..»

ورد عباس النحال بهدوء وثقة:

ـ «لا شأن لى بعيونكم هذه إذا كان الدود يملؤها منذ الآن»

وتوقفت القضية عند قول أطلقه العمدة:

ـ «انسوا الموضوع.. إنه عباس النحال.. ألا تعرفونه؟»

ولكن الجمهور تذكر الموضوع فى هذه المباراة، وراح الناس يطلقون التعليقات الساخرة.. فمنهم من يحاول تفسير الحروف المكتوبة على بطن بدير، ومنهم من يحاول تفسيرها على ظهر السيد.. أو على مؤخرة الاثنين، فالميم والراء حرفان من كلمة مرحبًا، والباء والطاء حرفان من كلمة البطل..، وعندما سأل واحد من الناس بسخرية:

ـ «هل وجد أحدكم أى حروف من كلمة الثورة؟»

رد عليه ساخر آخر:

«الثورة ستجدها على مؤخرة عباس النحال»

وقفزت إلى أذهانهم صورة هزلية لعباس النحال وهو يرتدى ملابس الكرة كولديه وعلى سرواله بعض حروف كلمة الثورة .. فانفجروا ضاحكين..

وبعد هزيمة الفريق المنكرة صب الناس جام غضبهم عليه وودعوه بسخرية واستهجان وعقد بعضهم زفة خاصة لبدير والسيد النحال، فسارع بدير بارتداء جلبابه وغادر الملعب مسرعًا.. أما السيد، فلم يفعل ما فعله أخوه ويلوذ مثله بالفرار.. لكنه واجه الساخرين باللكم والشتائم..

* * *

وفى بيته المزدحم بالإعياء والأبناء علم عباس بانكشاف أمر قماش اليفط فلم يلق بالًا لذلك حتى وهو يتطلع إلى وجه بدير الطافح بالحقد والمرارة، فبدير لا يستطيع أن يؤنبه على سرقة القماش الذى ارتداه ذلك؛ لأنه لم يجد غيره ليرتديه.. إذن، فقد قضى الأمر، ولا مجال سوى التسليم بأهمية هذه السرقة.

أما بدير الذى كره نفسه، وكره قبلها المدرسة، وكره قبلهما مجرد وجوده فى الحياة، رأى أنه لا يمكن أن ينتقم من هذه الحياة، إنما يمكنه أن يعيد النظر فى علاقته بها.. مما يستوجب منه التحرك والفرار.

وإلى أين الفرار؟.. وكيف التحرك؟.. هو لا يدرى سوى أنه لا بد من التحرك.. ولا بد من الفرار.